

الكلام على النظم والنثر في عصر الجاهلية

النظم

كان الشاعر العربي يقول الشعر بالبديهة لحدة خاطره فيرتجل القول ارتجالاً وقد يعتمد القول في بعض الأحيان ويُجهد خاطره فيه فقد كان زهير بن أبي سُلمى قصائد لُقبت بالحوِّليات كان ينظم الواحدة منها ثم يهدبها بنفسه ثم يعرضها على أصحابه فلا يُشهرها حتى يأتي عليها حوّل وقد ولج الشعراء في عصر الجاهلية أبواباً كثيرة من الشعر فوصفوا ومدحوا وهجوا ونقروا ودونوا الأخبار وضربوا الأمثال ورعبوا وأرهبوا ولم يتركوا شيئاً وقع تحت حشمتهم حتى تناولوه بمقالهم فأجادوا وأبدعوا مع سهولة في اللفظ ومثانة في التركيب وتوخّ للحقيقة وبعُد عن الغلو .

ولقد تركوا فيما تركوه من أشعارهم ما يمكن أن يستخرج منه بيان لعاداتهم وسائر أحوالهم ومع أن منهم من سكن البادية على خشونة في العيش قد أتوا في كلامهم بالعجب العجيب من السهولة والأنسجام ورأع الحكم ودقيق الشعور والوجدان كما ترى ذلك فيما أوردناه في هذا الكتاب من كلامهم وجيد أشعارهم وكان الشعر ديوان علمهم ومستودع حكمتهم والضابط لآيامهم وقيد كلامهم والحاكم لهم والشاهد عليهم وله من

نفوسهم أسمى مكانة وأرفع قدر ومما يدل على علو قدر الشعر أن القبيلة من العرب كانت اذا نبغ فيها شاعر أتتها القبائل فهتأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن كما يصنعن بالأفراح وتباشروا به لأنه يحمي أعراضهم ويدفع عن أحسابهم ويخلد ما ترهم ويشيد بذكرهم وكان للشعر تأثير في النفوس وسلطته عليها حتى كانت تخشى بأسه الامراء وتحماماه الكبراء وطلما وضع قوما ورفع آخرين . قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ومما يدل على قدر الشعر عندهم بكاء سيد بني مازن حنارق بن شهاب حين أتاه محمد بن المكعب العنبري الشاعر فقال له ان بني يربوع قد أغاروا على إبلي فأسع لي فيها فقال كيف وأنت جار بني ودان فلما ولي عنه محمد حزن حنارق وبكى حتى بلت لحيته فقالت له ابنته ما يبكيك فقال وكيف لا أبكي وقد استغاثني شاعر من شعراء العرب فلم أغثه والله لن هباني ليقتضيني قواه ولئن كف عنى ليمتلئني سُكره . ثم نهض فمسح في بني مازن فردت عليه إبله

ومما رواه صاحب الأغاني وغيره أن أعشى قيس كان يأتي سوق عكاظ كل عام فيجتاز به الناس في الطريق للضيافة والمعافاة مدحه اياهم والتنويه بهم في عكاظ فريوما بيني كلاب وكان فيهم رجل يقال له

المخلوق وكان مثنانا مُملقا له تَمَانِي بَنَات لا يَحْتَبِهِنَّ أَحَدٌ لِمَكَانِ أَبِيهِنَّ
 مِنَ الْفَقْرِ وَنَجْوَى الذِّكْرِ فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ مَا مَنَعَكَ مِنَ التَّعَرُّضِ لِهَذَا
 الشَّاعِرِ وَأَكْرَامِهِ فَمَا رَأَيْتِ أَحَدًا أَكْرَمَهُ إِلَّا وَأَكْسَبَهُ خَيْرًا فَقَالَ
 وَيْحَكَ مَا عِنْدِي إِلَّا نَاقِي فَقَالَتْ يُحْلِفُهَا اللَّهُ عَلَيْكَ . فَتَلَقَاهُ قَبْلَ أَنْ
 يَسْبِقَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَكَانَ الْأَعْسَى كَفِيفًا يَقُودُهُ ابْنُهُ فَأَخَذَ الْمُحَلَّقُ
 بِخِطَامِ النَّاقَةِ فَقَالَ الْأَعْسَى مِنْ هَذَا الَّذِي غَلَبْنَا عَلَى خِطَامِ نَاقَتِنَا
 فَقِيلَ لِلْمُحَلَّقِ قَالَ شَرِيفٌ كَرِيمٌ ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ خَلِّهِ يَقْتَادُهَا فَاقْتَادَهَا إِلَى
 مَنْزِلِهِ وَأَكْرَمَهُ وَنَحَرَ لَهُ النَّاقَةَ وَجَعَلَتْ الْبَنَاتُ يَدْرِنَ حَوْلَهُ وَيَبَالِغْنَ
 فِي خِدْمَتِهِ فَقَالَ مَا هَذِهِ الْجَوَارِي حَوْلِي فَقَالَ الْمُحَلَّقُ بَنَاتُ أَخِيكَ وَهُنَّ
 تَمَانٍ نَصِيهِيْنَ قَلِيلٌ فَقَالَ الْأَعْسَى هَلْ لَكَ حَاجَةٌ فَقَالَ تُسَيِّدُ بَدْرِي
 فَلَعَلِّي أُشْهَرُ فَخُطِبَ بَنَاتِي فَهَضَّ الْأَعْسَى مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَلَمَّا
 وَافَى عَكَاطَ أَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَنْشَأَهَا فِي مَدْحِهِ وَهِيَ تَبْفٌ وَأَرْبَعُونَ
 بَيْتًا وَفِيهَا يَقُولُ

لِعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عَيُونُ كَثِيرَةٍ * إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِالْبَيْقَاعِ مُحَرَّقِ
 تُسَبِّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانَهَا * وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقِ
 فَسَارَتِ الْقَصِيدَةُ وَشَاعَتْ فِي الْعَرَبِ وَلَمْ تَمُضْ سَنَةٌ عَلَى الْمُحَلَّقِ حَتَّى

زَوَّجَ بَنَاتَهُ وَيَسَّرَتْ حَالَهُ ٥٥

وكان لشُعراء العرب آنفة من التَكسُّب بالشعر حتى نشأ السابغة
 الذبِّياني قُبيل الاسلام فدح الملوك وقبل الصلّة على الشعر وجاء بعده
 الأعشى وقد أدرك الاسلام ولم يُسَلِّمْ بفعل الشعر مُجبرا وانجع به
 أقاصى البلاد وقصد ملك العجم فأثابه وأجزل عطيمته . وكان زهير
 ابن أبي سُليّ بمن أفاد بشعره بمدائحهم لهزم بن سنان . على أن شيأ من
 ذلك لم يَضَع من قَدَر الشعر ولم يَحُط من قيمته لقلّة من كانوا يتكسبون
 بشعرهم في ذلك العصر

ومدة العصر الجاهلي نحو مائة وخمسون سنة ومن أشهر ما قيل فيه
 من الشعر المعلقات السبع وهي سبع قصائد من أجود الشعر العربي
 وأحسنه أسلوبا ويقال انها كتبت بالذهب على الحرير وعُلقت على
 الكعبة تنويها لها وتعظيما لشأنها وكان العرب يتناشدونها في شجاعتهم
 مترمين بما فيها من حماس السيم مُعجبين بما اشتملت عليه من المعاني
 الشريفة والتشبيه الحسن البديع وحسن الوصف ودقة المعنى ونير
 ذلك من المحاسن

وأصحابها هم امرؤ القيس والرفقة بن العبد وزهير وحمير بن ثابت
 ولييد وعنترة والحارث بن حازمة وكلهم من أقوال شعراء الجاهلية ومن
 اشتهر في العصر الجاهلي من الشعراء غير أصحاب المعلقات وكان من

خول الشعراء النابغة الذبياني والأعشى والمهلهل وعبيد بن الأبرص
والسموعل والشنقرى ودريد بن الصمة وأوس بن حجر وحاتم الطائي

النثر

قد أثر عن العرب من منشورهم في العصر الجاهلي بعض الأمثال والحكم
والخطب والوصايا مما علق بالضمير لحسنه وحرصت عليه النفس لنفسه
(الأمثال) جمع مَثَل وهو جملة من القول مقتطعة من أصلها
أو مرسلة بذاتها فتَنَقَّلَ عما وردت فيه إلى ما يصح قصده بها من غير
تغيير يلحقها في لفظها والعرب من أكثر الأمم أمثالا للحكمة المودعة
في نفوسهم ولفصاحة أسنتهم وميلهم إلى الإيجاز في القول . وقد ألفت
مجموعات للأمثال وطُبِعَ بعضها ومن ذلك مجموعة للبداني جمع فيها أكثر
من ستة آلاف مثل

(الحكم) جمع حِكْمَةٌ وهي الكلام المعقول الموافق للحق المصون عن
الحشو والعرب من أكثر الأمم إيرادا للحكمة في عبارات حسنة الأسلوب
متينة التركيب كلها من جوامع الكلم صادرة عن خبرة ودراية
وصفاء نفس

(الخطب والوصايا) الخطب جمع خطبة والوصايا جمع وصية وكل من
الخطبة والوصية يراد به جملة من القول يقصد فيها إلى الترغيب فيما

ينفع الناس من أمور معاشهم ومعادهم والتنفير مما يضرهم وقد تشمل
على الفخر والمدح ونحو ذلك

والفرق بين الخطب والوصايا أن الخطب تكون في المشاهد والمجامع
والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ولدى الكبراء والأمراء ومن الوفود
في أمرٍ مهمٍّ وخطبٍ مِلمٍ . وأما الوصايا فانها تكون لقوم مخصوصين
في زمنٍ مخصوص على شيءٍ مخصوص وكثيرا ما كانت تصدر من شخص
لعشيرته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو محاولة نُقْلة أو ما شابه ذلك
وسيرد عليك في هذا الكتاب أمثلة لكل ما تقدم تُفصّل لك بجملة
ويُوضّح لك مبهمه

السبب الذي دعا العرب الى الخطابة وما يتعلق بذلك (١)

لا يخفى ما كانت عليه العرب أيام جاهليتهم من الأنفة والتفاخر
بالأحساب والأنساب والمحافظة على شرفهم وعلو مجدهم وسوددهم حتى
حدث ما حدث بينهم من الوقائع العظيمة ولا شك أن كل قوم يتفق لهم
مثل ذلك هم أحوج الناس الى ما يستنض هممهم ويوقظ أعينهم ويقوم
قاعدتهم ويشجع جبانهم ويشدّ جنانهم ويشير أشجانهم ويستوقد
نيرانهم صيانة لعزهم أن يُسْتَهان ولشوكتهم أن تُسْتَلان وتُسَقِّيا بأخذ

النار وتحرزا من عار الغلبة ودلّ الدمار . وكل ذلك من مقاصد الخطب
والوصايا فكانوا أحوج إليها بعد الشعر لتخليد آثارهم وتأييد مفاخرهم
ولقد كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر
على ما ذكره الجاحظ في كتاب البيان . وقد ألف في خطبهم كتب كثيرة
وذكر الجاحظ في البيان والتبيين نبذة سالحة من خطب الجاهلية
والاسلام وكذا ابن عبد ربه في العقد الفريد

وكان للعرب اعتناء بالخطيب في جاهليتهم وللخطباء عناية بخطبهم
فكانوا يتخيرون لها أجزل المعاني وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلاً
لغرضهم ونيلاً لمقاصدهم فان الألفاظ الرائقة والمعاني الجزلة أوقع
في النفوس وأشدّ تأثيراً في القلوب ولذلك ورد أنّ من البيان لسحراً .
والأذن للكلام البليغ أصغى وأوعى والترغيب في العاجل والارهاب
في الآجل اللذان هما من أهم مقاصد الخطابة ومطالبها العالية ان لم
يكونا بعبارات تحلّب القلوب وتأخذ بجامعها فلا تأثير فيها ولا فائدة
منها

ومن عاداتهم في الخطابة أن الخطيب اذا تفاخر أو تنافر أو تشاجر
رفع يده ووضعها وأدى كثيرا من مقاصده بحركات يده فذلك أعون له
على غرضه وأرهب للسامعين له وأوجب لمتيقظهم

ومن عاداتهم فيها أخذ المخصرة بأيديهم وهي ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها وكانوا يعتمدون على الأرض بالعصى ويشيرون بالعصا والقنا وكانوا يستحسنون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ولذا مدحوا سعة الفم وضموا صغره

ومن أقوال خطباء الجاهلية قُتس بن ساعدة الأيادي وأكثم بن صيفي التميمي ودُو الأصبغ العدواني وعمرو بن كُثوم التعلبي وقيس بن زهير

أسواق العرب في الجاهلية

واهتدأؤهم الى تهذيب لغتهم وتوحيدها وعنايةهم بذلك

كان للعرب أسواق يقيمونها في أوقات معينة ويتتقون من بعضها الى بعض للبيع والشراء وكان يحضرها العرب بما عندهم من المآثر والمفانير ويتناشدون الأسعار ويقنون الخطيب . وكانوا يتحاجون الى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه وتفصيل شاعر على آخر فكانوا يقنعون من سمات عبارته وكان لها النصيب الأوفر من الفصاحة وحسن البيان مع التحرز من العيب والابتعاد عن النقص ويتخبرون من لغات العرب ما حلا في الذوق وخف على السمع . فكانت هذه الاسواق أندية عالية ومجتمعات لغوية أدبية اهتدى بها العرب الى تهذيب لغتهم لنظما وأسلوبا وجعل لغة

الشعر وانخاطبة لغة واحدة بين جميع القبائل باذلين في ذلك جهد
المستطيع منها حجة وذو المجاز وعكاظ

وأشهر هذه الأسواق سوق عكاظ من عكظه يعكظه عكظا عركه
وهي موسم للعرب من أعظم مواسمهم وعكاظ نخل في واد بين نخلة
والطائف من بلاد الحجاز وبينه وبين الطائف عشرة أميال وكانوا
يتبايعون في هذه السوق ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون وينشد
الشعراء ما تجدد لهم وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان

سأُنشِرُ إن حَيَّتْ لَهُمْ كَلَامًا * يُنْشَرُ فِي المَجَنَّةِ مَعَ عَكَاظِ
وفيها كان يخطب كل خطيب مصقع . وكان كل شريف انما يحضر
سوق بلده إلا سوق عكاظ فانهم كانوا يتواتون بها من كل جهة . ومن
كان له أسير سعى في فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم
بأمر الحكومة

وكانت تقوم هذه السوق من أول ذي القعدة الى العشرين منه
على المشهور واتخذت عكاظ سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة
وتركت بعد أن نهى الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة

ولعكاظ فضل على اللغة العربية في العصر الجاهلي اذ لولاها لأصبحت
لغة العرب لغات لا يتفاهم أصحابها وانفصلت كل منها عن الأخرى

وقتما ذلك لأن لغات القبائل العربية كان بينها تفاوت في اللهجة والاسلوب واللفظ وكان هذا التفاوت يقل ويكثر تبعا لضعف وقوة العلاقات التي تربط بها قبيلتان أو عدة قبائل وتبعالا لاختلاف عوامل المكان والزمان والاجتماع التي يؤثر اختلافها أعظم تأثير في اللغة . فلما عظم شأن عكاظ وأمها الشعراء والخطباء من كل مكان كان معظم همهم انتقاء الألفاظ الفصيحة المشهورة عند أكثر القبائل لاسيما قريش طمعا في أن تنتشر أقوالهم بين العرب كافة قال قتادة كانت قُرَيْشٌ تَحْتَبِي أَى تَخْتَارُ أَفْضَلَ لُغَاتِ الْعَرَبِ حَتَّى صَارَ أَفْضَلَ لُغَاتِهَا لُغَتَهَا فَنَزَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِهَا وَلَوْ اتَّبَعَ كُلُّ شَاعِرٍ أَوْ خَطِيبٍ لِهَجَّةِ قَوْمِهِ وَلُغَةِ قَبِيلَتِهِ وَحَدَهَا لَمْ يَجِدْ مِنْ يَسْتَحْسِنُهَا غَيْرَهُمْ وَوَقَفَتْ عَنِ الشُّهْرَةِ وَلَمْ تَرَوْهَا الْقَبَائِلُ الْأُخْرَى فَيَفُوتَهُ الْاِفْتِخَارُ بِهَا

وبذلك كان الشعراء والخطباء يبشون وحدة اللغة في أشعارهم وخطبهم فيما بين القبائل المختلفة متبعين في ذلك لغة قريش غالبا . وانما اختاروا هذه اللغة على غيرها لما كان لها من السيادة على لغات قبائل الحجاز ونجد ولما كان لقريش من رفيع القدر وعلو المنزلة بين جميع العرب

تاريخ الكتابة والنخط عند العرب

كان الغالب على العرب في بعض عصر الجاهلية الأمية والذين يعرفون الكتابة والقراءة منهم نفر قليل جدا . والزمن الذي ابتدئ فيه باستعمال النخط العربي قديم غير معين . وأول من كتب بالعربية على أشهر الأقوال أهل اليمن قوم هود عليه السلام وكانوا يسمون خطهم بالمُسند وهو النخط الحِمْيَرِي وكانوا يكتبونه حروفا منفصلة ويمنعون العامة من تعلمه حتى تعلمه ثلاثة نفر من طيئ فنصرفوا فيه وسموه بنخط الجِزَمِ لانه اقتطع من خط جِزَمِ ثم علوه أهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت الكتابة العربية فأخذها عنهم أهل الحيرة وتداولوها ولما قدم الحيرة حَرْبُ بن أمية القُرَشِي جد معاوية بن أبي سفيان نقل هذه الكتابة من الحيرة الى الحجاز بعد أن عاد الى مكة والصحيح أن أهل الحجاز إنما لُقِنُوا الكتابة من الحيرة ولُقِنُوا أهل الحيرة من التبابعة وحمير كما ذكره ابن خلدون قال وقد كان النخط العربي بالغاً مبالغته من الاتقان والاحكام والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نُسبَاء التبابعة والمجددين للملك العرب بأرض العراق

العلوم والمعارف عند العرب

في عصر الجاهلية

العرب غير البائدة يرجعون الى أصلين وهما قحطان وعدنان . أما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على جانب عظيم من المدنية والخصارة والغالب منهم سكن البلاد المعورة وبنوا القصور وشيدوا الحصون وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهل الاخبار شرحا وافيا . وكان لهم ملوك وأقيال دونخوا البلاد وأوغلوا في الارض واستولوا على كثير من أقطارها شرقا وغربا . كل ذلك يدل على وقوفهم على العلوم التي لا بد منها في حفظ النظام وعليها مدار المعاش وسياسة المدن وتديير المنازل والجيوش وتأسيس الامصار واجراء المياه مما لا يمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة

وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقتهم حادثة سيل العرم فقد كانوا على شريعة موروثه وعلم منزل وهو ما جاء به ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الى أن اختل أمرهم وتغير حالهم فاشتغلوا بما سمعت به قرأتهم من الشعر والخطب أو ما حفظوه من أنسابهم وآبائهم أو ما احتاجوا اليه في دنياهم من الأثواء والنجوم أو من الحروب ونحو ذلك . وكان لهم حظ وافر من معرفة الطب المبني في غالب الامر

على التجربة وكذلك التاريخ فقد تضمن شعرهم شيئاً كثيراً منه .
غير أن تدوين شئ من ذلك في عصر الجاهلين لم يكن لغلبة الأمية
والاعتماد على الذاكرة وقد نقل ما نقل منه بالرواية والسمع . وكان
يقال لهم الأمة الأمية قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا
منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل
لنى ضلال مبين) اه بتصرف من كتاب بلوغ الارب في أحوال العرب
وقال ابن خلدون وياقوت ما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليفة
ما كان للعرب من الملأ ودول عاد وثمود والعمالقة وحجر والتبابعة شاهدة
بذلك وقد ملكوا مصر والروم واستعملوا عليها أحد القياصرة وتوغلوا
في الهند والصين وبلاد الفرس والترك. والتبّت وأخذوا الأتأوى من
القسطنطينية وذكروا ذلك في أشعارهم وغير ذلك مما لانطيل به ثم
دولة مضر في الاسلام بنى أمية وبنى العباس

حالة اللغة العربية وآدابها

من ابتداء ظهور الاسلام الى الدولة العباسية

جاء الاسلام ولغات العرب ولهجاتهم متشعبة غير أن لغتين منها
كانت لهما السيادة على سائرهما . الاولى لغة قريش وكانت في مكة
وما جاورها . والثانية لغة حجر وكانت في بلاد اليمن

وقد تقدم في الكلام على عكاظ أن الشعراء والخطباء كانوا يؤثرون لغة قريش على سائر لغات العرب ويثبونها بين القبائل كافة في خطبهم وأشعارهم وكان ذلك قبل ابتداء نزول القرآن الكريم بنحو خمس وعشرين سنة ولما كان القرآن الحكيم منزلا بلغة قريش أصبحت السيادة لها على لغة حير وغلبت عليها وعلى جميع لغات العرب ودان لها الخطباء والشعراء وسائر المتكلمين بالعربية وصارت بعد ذلك هي اللغة المتداولة في المكاتبات والمؤلفات في جميع العلوم الى يومنا هذا والنضل في بقائها وحفظها انما يرجع الى الكتاب المجيد وحده ولما فتح المسلمون بلاد الشام والعراق والفرس ومصر وافريقية والمغرب وغير ذلك من البلاد انتشرت اللغة العربية بانتشار العرب وتعلبت على لغاتها الاصلية واكتنفا لم تهم جميع الناس دفعة واحدة شأن كل لغة جديدة في مبدأ انتشارها

ولقد كان هذا الانتشار سببا لظهور اللحن على لسان من تكلم بالعربية من غير أهلها وكذا على لسان بعض أهلها من المخالطين لهؤلاء . وهذا أمر كان متوقعا للحصول لأن اللغة ملكة صناعية تؤخذ مفرداتها وأساليبها بالتقليد

فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وتبنيهم تعبيرهم عن

مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم . فلما خالط العرب غيرهم صار الناشئ منهم يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه . ولقد وفي ابن خلدون في مقدمته هذا المقام حقه من البيان

وانك لترى اليوم من المتكلمين بلغتنا من الافرنج ما يوضح لك ذلك من لهجتهم وأساليب عباراتهم التي هي في الحقيقة أساليب لغتهم الاصلية صبغوها بصبغة عربية

ولقد ظهر شيء من اللحن في كلام الموالى والمتعربين من أول عهد الاسلام . من ذلك ما روى أن رجلاً لحن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال أرشدوا أحاكم فقد خل . وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري الى عمر رضی الله عنه فلحن فكتب عمر الى أبي موسى أن اضرب كاتبك سوطاً واحداً . غير أن اللغة في العصر الاول كانت ملكتها مستحكة وما ظهر من اللحن كان يسيراً . وفي أوائل الدولة الأموية

أخذ اللحن يفسو وينتشر وانتقل من الاعاجم الى العرب أنفسهم من أبناء الخلفاء والامراء والخاصة والعامّة . ومن شواهد ذلك أن زيادا لما أُوْقِدَ ابْنَه عُبَيْدُ اللهِ الى معاوية كتب اليه معاوية ان ابنك كما وَصَفْتَ ولكن قَوْمٌ لسانه . وجاء رجل الى زياد وهو أمير البصرة فقال أصح الله الأمير تُوفِّيَ أبانا وترك بنونا فقال زياد متعجباً منكراً توفي أبانا وترك بنونا ، وقالت ابنة أبي الاسود الدؤلي له يوما ما أحسن السماء فقال مجرّمها فقالت اني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها اذا فقولي ما أحسن السماء وافتحى فالك . وسمع أبو الاسود قارئاً يقرأ قوله تعالى (ان الله بريء من المشركين ورسوله) بجبرّ رسوله فأكبر ذلك وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله . وكان هذا سبباً في وضع علامات الاعراب للتحف بأمر زياد . وقال الجحاج يوماً للشعبي كم عطائك فقال ألفين قال ويحك كم عطائك فقال ألفان قال كيف لحنت أولاد قال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت . وقيل لعبد الملك بن مروان لقد جعل اليك الشيب يا أمير المؤمنين فقال شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . وكان الوليد بن عبد الملك كثير اللحن وله في ذلك نوادر كثيرة

الكتابة والنخط

كان انتشار الكتابة قبل الاسلام قليلا بين العرب كما تقدم ومنذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم انتشرت الكتابة للحاجة اليها في كتابة الوحي والرسائل التي كان ينفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء وقد أمر بعد غزوة بدر من لم يكن لها فداء من الأسرى أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة

ولما كثرت الفتوح في مدة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وضع ديوان الخراج وديوان الجيش لضبط الاعمال وكان ذلك في المحرم سنة عشرين

وقد كان ديوان الخراج والجبايات في بلاد العراق والشام ومصر يكتب فيه بغير العربية الى زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين ظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب فنقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية والذي نقله هو صالح بن عبدالرحمن كاتب الخراج وكان يكتب بالعربية والفارسية . ونقل ديوان الشام من الرومية الى العربية والذي نقله هو سليمان بن سعد والى الأردن وأكمله لسنة من ابتدائه ووقف عليه كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

ونقل ديوان مصر من القبطية الى العربية والذي نقله هو عبد الله
ابن عبد الملك بن مروان في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين
وأصبحت الدواوين الاسلامية بعد ذلك تكتب كلها بالعربية

وأول كتاب كتب باللغة العربية هو القرآن الكريم وقد كتبت
المصاحف العثمانية بخط الجزم (وسمى بالخط الكوفي بعد انشاء الكوفة)
واستعمل في عهد بني أمية مع ترقيه في درجات الحسن تبعاً لحضارة
الأمة . وقد كان المصحف خالياً من الشكل والنقط غير أنه لكثرة
المسلمين بسرعة انتشار الدين وظهور اللحن والتحريف خُشي على القرآن
الكريم من ذلك فقام أبو الأسود الدؤلي ووضَعَ له علامات الاعراب
في أواخر الكلمات بصيغٍ يُخالف لَوْن المداد الذي كُتِب به المصحف .
وجعل علامة الفتح نُقْطة فوق الحرف والضم نقطة الى جانبه والكسر
نقطة في أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين وذلك في خلافة معاوية .
ثم ان الحاج في مدة عبد الملك بن مروان أمر نصر بن عاصم أن يضع
له النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها وخالف في ذلك طريقة
أبي الأسود لئلا يلتبس النقط بالشكل . وبعد ذلك جاء الخليل بن أحمد
فتم بقية علامة الاجمام (الشكل) كالشدة والصلّة والقطعة وهذب
جميع العلامات فجعل الضمة واوا صغيرة فوق الحرف والكسرة ياء صغيرة

تحتته والفتحة ألفا مسطوحة فوقه والشدة رأس شين والصلة رأس صاد
وسمي كل هذه العلامات بالشكل أَخْذًا من شِكال الدابة الذي تقيد به
فكان شكل الكلمة يقيد بها عن الاختلاف فيها وكان المعروف من الخط
في ذلك العصر نوعان . أحدهما يستعمل في كتابة المصاحف ونحوها
والمسكوكات مما يُحتاج فيه الى التأنق والاجادة وحُسن النَّسَق .
وثانيهما يستعمل في كتابة الرسائل ونحوها مما يُطلب فيه الاسراع ولا
يُحتاج فيه الى التأنق وزيادة التحسين . والنوع الاول هو المعروف
بالخط الكوفي وأما النوع الثاني فانه أصل خط النَّسخ ارتقى في الحُسن
والجودة شيئاً فشيئاً حتى تحوّل الى ما هو عليه اليوم

ثم ان الخط بنوعيه انتقل الى الامصار التي انتشر فيها الاسلام وتنوعت
أشكاله ورسومه فانتقل في عصر الأمويين الى افريقية وتولد منه الخط
المعربي المستعمل الآن في المغرب الاقصى والجزائر وتونس وطرابلس

النثر والنظم وفضل القرآن الكريم

على اللغة العربية في تهذيبها وترقيتها

قد أخذت اللغة العربية عند ظهور الاسلام وجهةً دينيةً من
القيام بالدعوة الى الدين والوعظ وتبيين العقائد الصحيحة وقواعد الاسلام
وأصوله وأحكامه وحكمه وآدابه

وانك لترى في كلام الصدر الاول من أهل الاسلام الحث على اتباع الدين والتمسك به واعلاء كلمة الحق والعمل للاخزه والأخذ من الدنيا بنصيب والتحذير من الاسترسال مع الشهوات والأهواء والنظر الى خيرات الأقاليم التي فتحها المسلمون والتطلع اليها خوف الوقوع في الزلزل .

فترى رسائل هذا العصر المنير وخطبه تُردّد صدى الكتاب العزيز حاثّة على الفضيلة مُنقّرة من الرذيلة . وكُلّها جاء فيه اللفظ تابعا للمعنى لم يُتعمّد فيه ضَرْبٌ من ضروب التمنّعة الكلاميّة صادرة عن شعورٍ حَيٍّ ووجدانٍ صادقٍ وإذا نَقُذت الى سُويداء القساوب وأصابت موانع الوجدان . وإذا كان الكلام خارجا من القلب فإنه يقع في القلب وإذا لم يكن صادرا الاعن اللسان فإنه لا يتجاوز الآذان . وقد قننت هذه الحكم والمواعظ والخطب والنصائح على الرذائل والأوهام بالزوال وقسّمت الفضائل والخصائص فرأت أهلا ومكانا سهلا ففعلت بها النمنوس والعقول وقويت العزائم وعَلَّتْ الهَمَمُ فساد المسلمون بجميع الأمم

ويرى الناظر الى حالة اللغة في عصر الدولة الاموية انها انتقلت الى حالة أجهل مما كانت عليه لانتقال القوم من البداوة الى الحضارة ومن سكنى الخيام الى سكنى القصور فانتسعت مداركهم وزادت تجاربهم وقوى فيهم الخيال وكثرت التصورات وانتقلوا من حال الى حال فأشعر

ذلك نفوسهم معاني جديدة ووجدانا وعلمنا لم يكونا من قبل . فاحتاجوا الى العبارة عن ذلك بما يلائمه من الالفاظ والتراكيب وساعدهم على صوغ العبارات في الغالب اللائق بها قوة اللغة واتساعها وأخذهم بزمامها . وقد ظهر ذلك في خطبهم ورسائلهم ظهوراً بيناً

وكانت موضوعاتها في الغالب الوعظ والارشاد والذود عن الحقوق وايقاف الاطماع عند حدّها وكُتبت الخارجين وتأليف الأحزاب وتوحيد الكلمة وكانت العبارات لاتزال آخذة اسلوباً حياً مؤثراً مع إحكام صنعة وحسن عبارة وجوده مقاطع

الخطابة

كانت خطب الصدر الاول من الاسلام في أسمى طبقات الفصاحة والبلاغة كما ترى ذلك في خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين كما عاوية وزياد وعبد الملك والحجاج وقطر بن العلاء وأبي حنيفة وواصل بن عطاء . والفضل في ارتقاء الخطابة يرجع الى الكتاب المبين من وجوه كما بين ذلك صاحب كتاب أشهر مشاهير الاسلام قال في بيان هذه الوجوه

(١) ان القرآن الكريم وان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون الا أن أساليبه العالمية التي أعجزت خطباءهم

وفصحاءهم وأخذت بجامع قلوبهم ألبسهم ملكة من البلاغة في تخير
 الأساليب غيرت ملكتهم الاولى وأطلقت السننهم من الوحشية والتعق
 الذي كان ديدن كثير من خطبائهم حتى أنهم كانوا يعيبون الخطيب المصقع
 اذا لم يكن في كلامه شيء من آي القرآن. روى الجاحظ أن العرب كانوا
 يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحقل وفي الكلام يوم الجمع آي
 من القرآن فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع
 (٢) ماجاء في القرآن من الترغيب والارهاب على الاسلوب البالغ
 حد اليجاز وما كان له من التأثير في الضمائر والأخذ بشكائم النفوس
 أعانهم على التفنن في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الآزمات أو
 الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ يدفع
 بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات

ويملك من قلوب الرجال ما لا يملك بالبدر والاموال

(٣) أن الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من طباعهم وعدل
 من شيمهم أدخل من الرقة على عواطفهم مارق به كلامهم وكثر للمعاني
 المؤثرة في النفوس اختيارهم في مخاطبتهم وخطبهم

(٤) أن الاسلام بما مهد لهم من سبيل الفتح ومخالطة الامم وبما
 منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب وقر لهم الاسباب

الداعية الى التوسع في الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع من الملك
وتقتضيه عادات الأمم المحكومة وأخلاقها اه بتصرف يسير
في العبارة

وكان الخطباء في هذا العصر يمسكون بيدهم العصا أو المنصورة كما
كان عليه خطباء الجاهلية قال عبد الملك بن مروان لو ألقيت الخيزرانة
من يدي لذهب شطر كلامي

الرسائل

في صدر الاسلام كانوا يكتبون من فلان الى فلان وجرى ع
الصحابة والتابعون حتى ولى الوليد بن عبد الملك فامر أن لا يكتبه
الناس بمثل ما يكتب بعضهم بعضا وبقي الحال كذلك الا ما كان من عمر
ابن عبد العزيز ويزيد بن الوليد حيث اتبعا السنة الاولى وبعد ذلك رجع
الامر الى ما كان عليه الوليد

وفي أواخر الدولة الأموية أخذت الرسائل أسلوبا غير الذي كانت
عليه ودخلتها الصنعة والقصد الى تمتيق اللفظ وابتدأ ذلك الانقلاب بعبد
الحميد بن يحيى الكاتب وهو أول الطبقة الثانية من الكتاب . وكانت
الرسائل قبل عبد الحميد موجزة غالبا ثم طوّلت لاقتضاء المقام تطويلها

النظم

قد انصرف العرب عن الشعر والمنافسة فيه في أول عصر الاسلام
بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أساليب القرآن
ونظمه فأخسروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ثم
استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر
وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأتاب عليه فرجعوا حينئذ
الى دينهم منه . وكان لعمر بن أبى ربيعة كبير قريش لذلك العهد
مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن
عباس فيقف لاستماعه مُعجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملأ والدولة
العريزة وتقرّب اليهم العرب بأشعارهم يمدحونهم بها ويحيزهم الخلفاء
بأعظم الجوائز على نسبة الجودة فى أشعارهم ومكانهم من قومهم
وتحترسون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار
واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون وليدهم بتفطها ولم يزل هذا
الشأن أيام بنى أمية وصدر من دولة بنى العباس من المقدمه
لابن خلدون من الفصل الحسين من الكلام على العلوم
وقال حماد الراوية أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج
أى الكراريس فكُتبت له ثم دفنّها فى قصره الأبيض

فلما كان المختار بن عُميد قيسل له ان تحت القصر كُنْزًا فاحتفَرَه
فأخرج تلك الأشعار فبن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل
البصرة . وقال ابن خلدون أيضا ان كلام الاسلاميين من العرب أعلى
طبقة في البلاغة من كلام الجاهلية في مشورهم ومنظومهم فأتانا نجد
شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق
ونصيب وعميلان ذى الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من
العرب في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية في ترسلهم وخُطبهم
ومحاورتهم للأولئك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن
كثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في
مشورهم ومحاورتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك
للناقد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام
سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن الكريم والحديث الشريف
الذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما لتكونها ولجأت في قلوبهم ونشأت على
أساليبها نفوسهم فنضت طبائعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات
من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها
فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصنى رونقا من أولئك
وأرصف مبنى وأعدل تقيفا بما استفادوه من الكلام العالی الطبقة اه

والشعراء الذين أدركوا الجاهلية والاسلام يُسمون المخصّرين (من
 انحصّرت وهى الخلط لانهم جمعوا بين العصرين الجاهلى والاسلامى)
 ومن أشهرهم حسان بن ثابت والنابغة الجعدي وكعب بن زهير
 والعباس بن مرداس والحطيئة . وأما الذين لم يدركوا عصر الجاهلية
 بل نشأوا فى الاسلام بعد هؤلاء المخصرين فانهم يسمون بالاسلاميين
 ومن أشهرهم جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة والكميت وبشار
 ابن برد آخرهم وهو من أدرك العصرين الاموى والعباسى

وكلا الفريقين يُستشهد بكلامه فى اللغة ويُتخج به

وقد امتاز الشعر فى هذا العصر ببلاغة فى المعنى ومثانة فى التعبير
 وإحكام فى التركيب مع رقة وحسن تصرف فى القول وسعة فى التسوّر
 فاق فى كل منها الشعر الجاهلى

ولم يزل للشعر من المكانة فى النفوس فى العصر الاموى ومصدر
 من العصر العباسى مثل ما كان له فى العصر الجاهلى وان كان
 بعض المخصرين كالخطيئة والاسلاميين كالأخطل وجرير اتخذوه
 صناعة للتكسب وطلب الرزق من السادات والامراء والنفاء فان
 ذلك لم يحط من قدره ولم يحسد من شؤمكته ومن شواهد ذلك
 ما رواه الجاحظ فى البيان عن أبى عبيدة قال كان الرجل من بنى نضير

إذا قيل له ممن الرجل يقول نميرى كما ترى فما هو إلا أن قال جرير
 فَعَضَّ الطَّرْفَ إِنَّاكَ مِنْ نَمِيرٍ * فلا كعبا بلَغَتْ ولا كلابا
 حتى صار الرجل من بنى نمير إذا قيل له ممن الرجل قال من بنى عامر .
 وروى الجاحظ أيضا عن أبي عبيدة قال كان الرجل من بنى أنف
 الناقة إذا قيل له ممن الرجل قال من بنى قُرَيْعَ فما هو إلا ان قال
 الحطيئة

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ * وَمَنْ يُسَوِّ بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذُّبَابَا
 حتى صار الرجل منهم إذا قيل له ممن الرجل قال من بنى أنف
 الناقة

العلوم والمعارف

جاء القرآن المجيد بحكمه السامية وأحكامه العادلة كافلا لمن عمل به
 سعادة الدنيا والآخرة فوجد فيه المسلمون غُنَيْتَهُمْ وجَعَلُوهُ هو والسُّنَّةُ
 النَّبَوِيَّةُ عُمَدَتَهُمْ ومرجعهم مدة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية .
 وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون دقائق الكتاب ويدركون حكمه
 وأسراره ويعرفون أحكامه من غير احتياج الى تعلم العلوم اللسانية
 كالنحو والصرف وعلوم البلاغة ومثني اللغة لان الكتاب كان متَّزِلا
 بلُغَتِهِمُ التي هم بها يتخاطبون وكانوا على علم تام بالحوادث التي نزل فيها

القرآن وبأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأنواع السّخّ والمحكم والمتشابه والمجمل والمفصل الى آخر علمه التي أفردتها الأئمة بالتأليف وعاية الاشتغال بهذه العلوم اللسانية انما هو الوصول الى معرفة اللغة كما كانت تعرفها العرب . ولم يكن لديهم من بقايا قدمائهم في العلوم الدنيوية الا البعض كالطبّ الذي ورثوه عن أسلافهم . ولا يذهبن بك الوهم الى أن الدين الاسلامي يصدّ عن الاشتغال بالعلوم والفنون الدنيوية اذ الكتاب العزيز جاء حائنا على النظر في ملكوت السموات والارض منها الى الانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من هذه الخليقة بصريح العبارة في الآيات العديدة غير أن المسلمين في أول ظهور الاسلام كان يمنعهم عن الاشتغال بهذه العلوم انصرفهم الى القيام بدعوته وتصلّيهم تهذيب جميع العالم وترقيته وتخليص من حولهم من الأمم من شوائب الأرهام والرذائل . فكانوا خصماء للعالم كله . فلما تضحخ الخافقان بطيب عييره وارنوى الأفقان من عذيب نيمه واستقرت من الدين دعوته وعلت كلمته ونفدت شوكته ووجهت العناية الى تلك العلوم الدنيوية في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية . وقد ظهرت آثار العلوم العقلية في أوائل القرن الثاني وترجمت جملة من الكتب العلمية والصناعية

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يستظهرون الاحاديث
التبوية ولا يكتبونها وجرى التابعون على سنتهم حتى كانت خلافة عمر
ابن عبد العزيز رضى الله عنه فكتب الى الافاق (انظروا حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم واجعوه) ودونه بأمره محمد بن شهاب الزهري
المتوفى سنة ١٢٥ وكان ابتداء تدوين الحديث على رأس المائة .
وبعد ذلك دُوت كُتِب الحديث تباعا في عصر العباسيين ووجهت اليها
العناية حتى ضبطت ضبطا محكما

وأما البراعة في الآداب من العلم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر
وانشاء البليغ من النثر فانها قد بلغت في خلافة بنى أمية مبلغا
لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها . وقد كان الخلفاء من بنى أمية يُعَوَّن
مَنزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء وكذا الدولة العباسية
وأخبار المهدي مع المفضل وحجاد وحديث الرشيد مع الأصمعي حلية
تلك القلادة وقال الامام أبو الحسن بن سعيد العسكري بلغ من عناية
بنى أمية وشغفهم بالعلم انهم ربما اختلفوا وهم بالشام في بيت من الشعر
أو خَبِرَ أو يومٍ من أيام العرب فيُبرِدون فيه البريد الى العراق حتى
قال أبو عبيدة ما كنا نفقد في كل يوم راكبا من ناحية بنى أمية ينبخ
على باب قسادة يسأله عن خَبَرٍ أو نَسَبٍ أو شعرٍ فقدم عليه رجل من

عند أبناء الخلفاء من بني مروان فقال له مَنْ قَتَلَ عامراً وعمراً
التغليبيين يومَ قِصَّةٍ فقال قتلها بجحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة
فشخص بها ثم عاد إليه فقال أجل قتلها بجحدر ولكن كيف قتلها
جميعاً فقال اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزُّجِّ فعادى بينهما ثم
قال ولم يزل المأمون حين دخل العراق يرأس الأصبعي في أن يحميه
ويحرص على ذلك والشيخ يعتذر بضعف وكبر ولم يجب فكان الخليفة
يجمع المسائل وينفذها إليه إلى البصرة اه باختصار

وقد كتب شيء من التاريخ في زمن معاوية رضى الله عنه وقال
ابن خلكان أنه رأى تأليفاً لوهب بن منبه المتوفى سنة ١١٦ في أخبار
ملوك حير وأشعارهم

وكان وضع علم العربية في آخر عهد الخلفاء الراشدين بسبب انتشار
اللحن وأول من وضعه وأسس قواعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه وأخذه عنه أبو الأسود الدؤلي وأتمه

قال أبو البركات عبد الرحمن بن شمس الانباري في كتابه تاريخ الأدباء
بعد كلام مانعه

وسبب وضع علي كرم الله وجهه لهذا العلم ما روى أبو الأسود قال
دخلت علي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة فقلت

ما هذه بأمر المؤمنين فقال انى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسَدَ
 بمخالطة هذه الجراء (يعنى الاعاجم) فأردت أن أضع شيئاً يرجعون اليه
 ويعتمدون عليه . ثم ألقى الى الرقعة وفيها مكتوب (الكلام كله اسم
 وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ به والحرف
 ما أفاد معنى) وقال لى ائح هذا النحو وأضف اليه ما وقع اليك واعلم
 يا أبا الاسود أن الاسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لظاهر ولا مضمر
 وانما يتفاضل الناس يا أبا الاسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (وأراد بذلك
 الاسم المبهم) . قال ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب
 والاستفهام الى أن وصلت الى باب ان واخواتها فكتبها ما خلا «لكن»
 فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرنى بضم «لكن» اليها .
 وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت
 ما فيه الكفاية فقال ما أحسن هذا النحو الذى نحووت فلذا سُمي
 «النحو» اه

وأخذ عن أبي الاسود جمع من الطلاب من أشهرهم نصر بن عاصم
 المتوفى سنة ٨٩ بالبصرة وهو واضح النقط والشكل للصحف كما تقدم .
 وجاء بعده جمع من أئمة العربية أحكوا ترتيب القواعد وأكثروا من
 الادلة والشواهد وسيرد عليك ترجمة بعضهم فى هذا الكتاب

حالة اللغة العربية وآدابها

في عصر الدولة العباسية وما بعدها

جاءت الدولة العباسية وقد انتشرت العرب في أنحاء المعمورة وامتد ملكهم شرقا وغربا من الهند الى الاندلس ودانت لهم أمم كثيرة شتى اللغات واللهجات دخل أكثرهم في الاسلام واختلطوا بالعرب وتكلموا بلغتهم فكثرت المتكلمون بالعربية من غير العرب وهم كما تعلم من الاعاجم الذين لم تكن العربية ملكة فيهم كالعرب فسرى الفساد الى اللغة وفشا اللحن والتعريف . وكان أول ما ظهر ذلك في المدن والأصهار ثم دب الى البدو بعد زمن طويل لقلّة اختلاطهم بالأعاجم . ومن لم يختلط بهم لم تفسد لغته . وكانت سرعة الفساد وبطؤه تابعين لسكثرة المخالطة وقائما ولما تغلب العجم من الديلم والسجوقية على الممالك الاسلامية في بلاد فارس والعراق والشام زاد فساد اللغة وكاد اللسان العربي يذهب لولا الكتاب المجيد . وبعد أن سقطت الدولة العباسية وتغلب التتار والمغول بالمشرق (ولم يكونوا وقت تعلمهم مسلمين ثم دخلوا في الاسلام بعد ذلك) أخذت اللغة العربية في البلاد الفارسية وماجاورها في الانحلال حتى لم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق العجمي وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند وبلاد الروم إلا في كتب الحديث والدين وبعض كتب

العلم حتى ان كثيرا من مؤلفاتها كتب بغير اللغة العربية كالتركية
والفارسية والهندية وذهبت أساليب اللغة من النثر والنظم الا قليلا
وبقيت العربية ببلاد العرب والعراق العربي والشام ومصر وبلاد
المغرب ثم تشرف بالاسلام أولئك المتغلبون فعاد في بلادهم الى العربية
بعض روائها وفاص بعد أن غاض معين روائها غير أن لغة الكلام
أصبحت بعيدة عن لغة الكتابة لكثرة مادخلها من التغيير والتبديل
واتسعت مسافة الخلف بينهما. فالكتابة لا تزال باللغة العربية الصحيحة
في الكتب المتبعة وأما الكلام فقد تغلبت عليه اللغة العامية وهي
خليط من اللغة العربية بعد تحريف كلماتها وتغيير أساليبها ولهجتها
مع بعض كلمات وأساليب من لغات أخرى امتزجت بها . وهذه اللغة
العامية كل يوم في تقلب وتغير لاختلاف المخالطين لأهلها من الاعاجم
وتفاوت سلطتهم قوة وضعفا. ولذا تجد اللغات العامية تختلف في لهجتها
وبعض كلماتها باختلاف البلاد والعصور كما ترى ذلك في لغة أهل مصر
والشام وبلاد المغرب اذا قارنتها بعضها ببعض وفي لغة أهل الجزائر
اليوم ولغتهم قبل ذلك بخمسين سنة.

ولقد أتى في مصر والشام زمن طويل على اللغة العامية زاحجت
فيه اللغة العربية الصحيحة في الكتابة وفي بعض المؤلفات كما ترى شيئا

من ذلك في تواريخ ابن اياس والجبرتي والانس الجليل وربما تعمد مؤلفوها ذلك لفهام العامة وراه أيضا في كتابة الدواوين بمصر في القرن الماضي ولا تزال آناها ظاهرة الى اليوم ظهورا بينا في بعضها وقليلة أو نادرة في بعضها الآخر

بل كانت لغة الدواوين في مصر بعضها لا يفهم لبعده عن كل من اللغة العامية واللغة الصحيحة

ولكن عناية الله تعالى تداركت هذه اللغة الشريفة وهي على آخر رمق من حياتها بعماء أفاضل أخذوا بناصرها من زمن غير بعيد ونهضوا بها نهضة لم تكن في الحسبان حتى أرجعوا اليها بعض ما فقدته من قوتها

النثر والنظم

اتسع نطاق النثر في العصر العباسي اتساعا عظيما ودونت به جميع العلوم من دينية وأدبية ورياضية وطبية وفلسفية وغير ذلك مما وضعه المسلمون أو ترجوه من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية

وقد استدعى هذا وضعا جديدا لكثير من الالفاظ بحسب اصطلاحات العلوم والفنون كما ترى ذلك في اصطلاحات علوم الدين والأدب والرياضة والطب والفلسفة من الأوضاع العرفية المستحدثة

وكانت عبارة التأليف من ابتداء تدوين العلوم الى حوالى القرن الرابع خالية من التعقيد حسنة الأسلوب متينة التركيب قريبة المأخذ لاسيما علوم الأدب والشريعة أصولا وفروعا حتى كتب القواعد النحوية من اللغة وكذا كان شأن الرسائل والتحرير في أى غرض كان في ذلك العصر الذى زهت فيه العلوم وحييت الآداب وعمت الحضارة والمدنية وبلغ كل ذلك غايته من الارتقاء بين الأمة الاسلامية . غير أنه دخل شئ من التكلف في النثر والنظم ولكنه كان مستترا بحسن السبك وإحكام الصنعة في الغالب ولم يكن ليؤثر في جملة المنظوم والمنثور تأثيرا كبيرا لقلته ولحسن التصرف فيه وبعد ذلك أخذت هذه الحياة الادبية في الضعف تبعا لضعف الخلافة العباسية العربية وكثر التكلف في الكتابة والنظم ومال كثير من الكتاب الى السجع وكاد بعضهم يهمل جانب المعنى لاهيا عنه بالالفاظ وتجميلها والجناس ونحوه من المحسنات اللفظية حتى صنفت كتب بالكلام المسجوع كالمخ العتبي والفتح القدسي لكن عبارة التأليف فيهما وفي كثير من الكتب لاتزال راقية عالية الأسلوب وكذا بعض الرسائل وامحركات حتى دخلت اللغة في دور الانحطاط بسقوط الدولة العباسية شيئا فشيئا الى عصرنا هذا حيث أخذت تستعيد بقدر الامكان ما كان لها من حسن الأسلوب ومتانة

التركيب مع البعد عن تكلف السجع والجناس والقصد الى المعنى .
والفضل في ذلك يرجع للنهضة العامة في مصر والشام كما تقدمت الاشارة
الى ذلك في الفصل السابق

النظم

قد فسّحت الحضارة وسعة العمران لشعراء الدولة العباسية مجالاً
لم ينفسح للشعراء قبلهم فذهبوا فيه المذاهب وتفننوا وأبدعوا وتصرّفوا
في المعاني وأجادوا السبك وأحكوا الصنعة وفاقوا في الرقة والسهولة
والتفنن في القول من تقدّمهم من شعراء الدولة الأموية . ولا عجب
في ذلك فقد وصفوا ماشاهدوه مما امتلأت به أيدي الفاتحين من
خيرات الاقاليم وما وقع تحت حسمهم من آثار الامم التي تغلبوا عليها
واللغة في عنفوان شبابها والخلفاء من أكبر أنصارها (والناس على دين
ملوكهم) وانك ترى العجب في كلام شعراء العباسيين الى نهاية القرن
الثالث فقد بلغوا الغاية في كل ما تكلموا فيه واستمر الشعر في قوته بعد
القرن الثالث غير أن الشعراء المجيدين أخذ عددهم يقل شيئاً فشيئاً حتى
انتهوا بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ و جاء بعد هؤلاء قوم اشتهروا ولكنهم
لم يبلغوا شأو من تقدمهم وكان آخرهم صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٤٠
وبعد ذلك أصبح النظم كالنثر في حكمة ضعفاً وقوة حتى عصرنا هذا

وشعراء الدولة العباسية يسمون بالمولدين وقد امتاز شعرهم بالرقّة والسهولة وعذوبة اللفظ والتوسع في التشبيه والمجاز والكناية والتوغل في الخيال مع القرب من الحقيقة أحيانا وقد أكثر المتأخرون منهم من المحسنات البديعة حتى صار لكلامهم مَسْحَة ظاهرة من الحُسْن من دونها معنى نافه أو غلّو غير مقبول

وقد كان لكل شاعر طريقة امتاز بها في شعره وقد جمع بعضهم بين النثر والنظم واتفق له في كل منهما كلام جيد كالبديع والحوارزمي والميكالي والشريف الرضى . ولقد كان للشعر مكانة في النفوس وسلطان عليها الى صدر الدولة العباسية ثم فقد تأثيره بعد ذلك لكثرة المتبذلين من الشعراء في المدح والهجو وغلّوهم في ذلك وكذبهم ولاخطاطهم من أعين العظماء خصوصا غير العرب الذين لا يقع من نفوسهم الشعر الجيد موقعه من نفس العربي

وقد زاد المولدون أوزانا للنظم كالموشح والسلسلة والدوبيت وتفننوا في النظم فقسّموها وشطروا وتصرفوا فيه تصرفا كثيرا

وخلول شعراء المولدين والمجيدون من كتابهم كثيرون فن الفريق الاول بعد بشار بن برد مسلم بن الوليد وأبو نؤاس وأبو العتاهية وأبو تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمتنبي والشريف الرضى

وأبو العلاء المعرّي وأبو فراس والحسن بن هانيّ الأندلسي وابن خفّاجة
والطُّعْرَائِيّ

ومن الفريق الثاني بعد عبد الحميد بن يحيى إبراهيم الصولي والحسن
ابن وهب والجاحظ وابن العميد والصابي وابن عبّاد والحوارزمي والبيديع
والحريري والقاضي الفاضل وعبد الطيف البغدادي

الخط العربي

في عصر العباسيين توجهت العناية الى تجويد الخط وتحسينه
وخالفت أوضاعه في بغداد أوضاعه في الكوفة في الميل الى اجادة
الرسوم وجمال الشكل . واخترعت الأقلام المختلفة فظهر قلم الثلث
والثلثين والنصف نظرا لاستقامة ثلث الحروف أو ثلثها أو نصفها وغير
ذلك من الاقلام الأخرى . واستمر الخط آخذاً في الارتقاء والجودة حتى
ظهر ببغداد الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن مقلّة المتوفى
سنة ٣٢٨ . واخترع نوعاً من الخط سمي بالخط البديع . وقد اشتهر
بين الكتاب أن هذا الخط البديع هو خط النسخ الشائع اليوم نقله ابن
مقلّة عن الخط الكوفي . ونفى ذلك بعض الباحثين مستدلين بوجود
خط النسخ قبل زمن ابن مقلّة كما شاهدوا ذلك في بعض الصحف
والرسائل التي كتبت قبل ابن مقلّة . والظاهر أن ابن مقلّة لم يخترع

خط النسخ اختراعا ولكنه تصرف فيه تصرفا بديعا ونقله الى صورة
 امتاز بها عن أصله في الجودة والحسن . وهذا مقام لا يزال محتاجا الى
 البحث والتحقيق . وكان ابن مقلة يضرب به المثل في حسن الخط .
 وتلاه في ذلك أبو الحسن علي بن هلال الكاتب الشهير المتوفى سنة ٤٣٣
 وقد أقرله أهل زمنه بالسابقة وعدم المشاركة في حسن الخط وهو
 الذي هدب الخط العربي ونقحه بعد ابن مقلة

ثم ان الخط الكوفي أهمل بتوالى الايام وحل محله خط النسخ . وقد
 تفنن الترك في تحسين الخط وتنويعه فأخترعوا خط التعليق والزقعة وأوصلوا
 النسخ والثلث الى أقصى درجات الحسن والاتقان كما هو مشاهد الآن
 والخط العربي منتشر في البلاد الاسلامية كلها تكتب به العربية
 والتركية والفارسية والافغانية ولسان أردو بالهند ولسان الملايو بجزيرة
 جاوة وما حولها

العلوم والمعارف

قد اعتنى الخلفاء والعلماء في عصر الدولة العباسية بتدوين العلوم
 الاسلامية فوضعوا أصول الفقه و صنفوا في فروعه واستنبطوا أحكامه
 ودونوا الاحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم وعلوم العربية
 واستخرجت علوم البلاغة ووضعت لها القوانين والشواهد ووضع

العروض وحصرت أوزان الشعر العربية في دوائرها الخمس . وأنشأوا
وترجموا كتباً في الطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم الرياضية والطبيعية
والفلسفية وتقويم البلدان والتاريخ العام وتاريخ الأشخاص . واعتمدوا
باللغة وضبطها وتصرفوا فيما ترجموه ففتحوا وهدنوا وزادوا واستنبطوا
وأصلحوا كثيراً من أغلاطه . وقد وسعت اللغة العربية كل العلوم التي
ألفت بها أو نقلت إليها ولم يدخل من اللغات الأجنبية الاثنى عشر وأكثر
ما وقع ذلك في الكتب التي عرّبها بعض من لا يتحسّنون العربية .
وتفصيل الكلام على هذه العلوم واشتغال المسلمين بها وعنايتهم بتأليف
ما ترجموه منها وجعله صالحاً لأن ينتفع به كل ذلك يحتاج إلى تأليف
الأسفار الكبار ليوفي حقه من البحث والشرح . غير أننا نذكر
مختصراً وجيزاً مناسباً للمقام مقتطفاً مما كتبه كبار مؤرخي المسلمين
ومحققو المؤرخين من الأفرنج المنصفين وأفاضل السالك المعاصرين
في ما أثر العرب وعلومهم ومعارفهم ومآلهم من الفضل على العالم كله
في ذلك كله ما زججنا أحياناً كلامهم بعرضه ببعض أو مدسّرين بالنسبة
القول إلى قائله حسب اقتضاء المنام ذلك فنقول

أول من اعتنى بالعلوم وتدوينها من الملوك العباسيين أبو جعفر
المنصور وقد أخذ في إنشاء المدارس للطلب والشريعة وكان مع براعته

في الفقه وفرط شغفه به قد جعل جزءاً من زمنه خاصاً بتعلم العلوم
 الفلكية وترجم في زمنه كتاب أوقليدس في الهندسة والهيئة والحساب
 وأكل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد
 مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وكان باذلاً جهده في احياء العلوم
 والآداب ونشرها وكتب في أيامه مصنفات كثيرة في العلوم الاسلامية
 وغيرها مما ترجم عن اليونانية ومن ذلك كتاب المجسطي الذي ألفه
 بطليموس في الرياضة السماوية وقيل ان هذا الكتاب ترجم في زمن المأمون
 بأمره . وكان المترجمون قوما من السريان غير مسلمين وقد أحسن
 الخلفاء صلّتهم وأفاضوا عليهم النعم وكان أكثرهم غير متمكن من العلوم
 التي نقلوها الى العربية فوقع فيها الغلط الكثير فصححه بعد ذلك
 الراسخون في العلم من العرب في عصر المأمون وما بعده كما صححوا كثيراً
 من غلط اليونانيين أنفسهم . وكان اشتغال العرب بالعلم للعمل به فتناولوا
 الكتب التي ترجموها من قوم كان حظهم منها حفظها على انها من
 نفائس الذخائر وما أثر الجليل الغابر وقد ظهر أثر العمل في عصر الرشيد
 ومن ذلك الساعة الدفاعة المتحركة بالماء التي أرسلها الى شرممان ملك
 فرنسا وعظيم أوروبا لعهدده ففرع الأوربيون منها لذلك العهد وتوهموا
 انها آلة سحرية قد كنت فيها الشياطين وان ملك العرب ما أرسلها

اليهم الا لتغناهم وتوقع بهم شرايقاع . وقد اجتمع في حضرة الرشيد
كثير من أكابر العلماء وكان يأتي بهم ويرفع منزلتهم وكلما سافر للحج
بيت الله الحرام استعجب معه مائة من العلماء

ولما أفضت الخلافة الى المأمون وجه عنايته الى العلوم والآداب
وشُغف بالعلم كل حياته ولم يكن يجالس الا العلماء وقد جمع وترجم كثيرا
من كتب الفرس واليونان في الهيئة والطبيعات وتخطيط الاراضي
والموسيقا . وغرس للعلم والادب جناحا ناضرة فزكا نبتها وتفتح نورها
وطاب ثمرها ووصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ونالت به أكبر ثروتها .
وكانت بغداد في عهده مدرسة عملية كما كانت دار خلافة . وكان من
شروط صلحه مع ميشل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة
وقد فعل . وقد ألف علماء العرب في زمنه أرسادا وأزباجا فللمكية
وحسبوا الكسوف والخسوف وذوات الأذنان وغيرها ورصدوا الاعتدال
الربيعي والخريفي وقدروا ميل منطقة فلك البروج وقاسوا الدرجة
الارضية وأصلحو بأمره غلط بعض الكتب التي ترجمت قبل زمنه
وجاء الواثق بعد المأمون وحذا حذوه في الاشتغال بالعلوم واقتدى
بالخلفاء الوزراء والأمراء في زمنهم وبعده وأخذوا جميعا بناصر العلماء
وشدوا أزرهم ورفعوا منزلتهم

فأخذ العلماء في الاستغال بكل علم وكل فن أمكن الاستغال به في ذلك العصر وبنوا علومهم على التجربة والمشاهدة. قال أحد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عند العرب هي «جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا» وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي «اقرأ في الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالما» اه فانظر الفرق وقارنه بما تجسده الآن من فرط عنايتهم بالبحث وما ينجم عنه من اصلاحهم الخطأ فيما لا يحصى مما كانوا أثبتوه حتى ان فطاحل منصفهم لم يجدوا بدا من الاعتراف بإمكان أن يثبت لهم غدا ضد ما أثبتوه اليوم كما ثبت لهم اليوم ضد ما أثبتوه أمس ولا من الاقرار بعدم الوقوف على كنه الكثير من ظواهر الكون التي ينتفعون بنحواصها ومن العلوم التي كان للعرب فيها اليد البيضاء علم الهيئة والهندسة وسائر العلوم الرياضية فان مازادوه عليها من مخترعاتهم وما أصلحوه من اغلاط اليونانيين قبلهم جعل لهم الحظ الأوفر في هذه العلوم .

قال ديلامبر في تاريخ علم الهيئة اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراسدين أمكنك أن تعد من العرب عددا كبيرا غير محصور .

وعن العرب أخذ الافرنج الارقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة الذي هو من وضع العرب أخذوه باسمه ومسماه . وقال بعض المؤرخين ان

ديوفنتوس الاسكندري من أهل القرن الرابع للميلاد هو أول من ألف في الجبر وكتبه لاتزال موجودة الى الآن . ولاحق ان هذه الكتب ليس فيها الا قواعد استخراج القوى وحل بعض المسائل وليس فيها أصول الفن وقواعده الاساسية التي امتاز بها وصار فنا مستقلا . ونظير ذلك علوم البلاغة قالوا ان مؤسسها وواضعها هو الامام عبد القاهر الجرجاني مع أن العلماء قد سبقوه الى الكلام في بعض مسائلها ولكنهم لم يبلغوا بذلك أن جعلوها علما ذا أصول وقواعد كما جعلها

وقد اكتشف العرب قوانين لثقل الاجسام مائعها وجامدها ووضعوا لها جداول في غاية الدقة والجمجمة . واخترعوا البندول للساعة اخترعه ابن يونس المصرى . والبوصلة البحرية واخترعوا بيت الابرّة أيضا . وهم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وأول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

ومن علومهم التي وضعوها ولم يسبقوا اليها علم الكيمياء الحقيقية فهي من اكتشاف العرب دون سواهم وعندهم أخذها الاوربيون وانك لاتستطيع أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ولكنك تعد من المجربين مئتين عند العرب وقد اشتغلوا بالطب والصيدلة ولهم في ذلك المؤلفات العديدة النافعة ودرجات الادوية الصالحة . وهم أول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير

والتصعيد وأول من استعمل السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل
العسل . وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون
أدويتها ازالة للغش ويسعرونها رفقا بالفقير وفضلهم في الطب على أوروبا
لا ينكر . وقد برعوا في الجراحة وكان النساء بالاندلس يباشرن كثيرا
من العمليات الجراحية بغيرهن من الاثاث وذلك ما بحث عليه أهل أوروبا
وأمرىكا اليوم . ولهم في هذه الفنون مؤلفون يعدون في الطبقة
الاولى من علماء العالم في العلوم التي اشتغلوا بها ولا تزال مؤلفات كثير
منهم باقية الى اليوم كقانون ابن سينا ومفردات ابن البيطار واذا رجحت
القول بأن يونان أخو قحطان غاضبه فرحل من اليمن ونزل ما بين
الافرنجة والروم فاختلف نَسَبُهُ بهم كانت تلك الكتب اليونانية انما
هي بضاعة العرب ردت اليهم

ولم يكن اشتغالهم بالجغرافية والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص أقل
من اشتغالهم بالعلوم السابقة فلهم السياحات العديدة حول أفريقية
وآسية وجانب من أوروبا وقد رسموا ما اكتشفوه رسما حسنا ولهم
في تقويم البلدان مؤلفات عديدة بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع فن
الاول تقويم البلدان لأبي الفداء ومجمع ياقوت طبعها في أوروبا ومن
الثاني نزهة المشتاق للشريف الادريسي محمد بن محمد الصقلي كان

في القرن السادس الهجري وهو الذي صنع لرجار الفرنجي ملك صقلية سنة ١١٥٣ أول كرة أرضية عرفت في التاريخ زنتها من الفضة ١٤٤ أفة رسم فيها جميع أنحاء الارض في زمانه رسماً غائراً مشروحاً بالاستيفاء وصنف له أيضاً كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مرتباً على الاقاليم السبعة وصف فيه البلاد والممالك مستوفاه مع ذكر المسافات بالميل والفرسخ . ومؤلفاتهم في التاريخ تفوق الحصر . والفضل الاول في الاشتغال بهذه العلوم يرجع الى مدرسة بغداد التي كانت ينبوعاً أصلياً استمدت منه سائر المدارس الاسلامية . قال بعض مؤرخي الافرنج ان العرب استقاموا عدة قرون على الطريقة التي وضعها علماء مدرسة بغداد واتبعوا قواعدهم وهي الانتقال من النظر في المسببات الى اجتلاء الاسباب لا يعولون الا على ما اتضحت صحته وعرفت حقيقته وقد أنشئت المدارس العديدة تباعاً وجمعت اليها العلماء ولم يخل منها قطر من الاقطار الاسلامية . وازدانت بهذه المدارس بغداد والبصرة والكوفة وبجاري وسمرقند وبلخ وأصفهان ودمشق وحلب في قارة آسية والاسكندرية والقاهرة ومراكش وفاس وسبتة والقيروان في قارة أفريقية وأشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها من مدن الأندلس العديدة في قارة أوروبا . وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة في القرن الرابع وفي قرطبة

وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في مدة الحَكَم بن عبد الرحمن
الناصر المتوفى سنة ٣٦٦

وأصبحت الاندلس بعد ذلك في أواخر القرن الخامس خاصة بالمكاتب
والمدارس الجامعة ولم تَحُلْ مدينة من مدنها من مدارس متعددة .
قال جيون في كلامه على حياية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة
الاقليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء
وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على
طلبه . وكان عن ذلك أن دَوَّقَ العلم ووجدان اللذة في تحصيله انتشرا
في نفوس الناس من سمرقند وُبُخَارَى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير
واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتي ألف دينار على بناء
مدرسة في بغداد وجعل لها خمسة عشر ألف دينار تصرف في شؤونها
كل سنة . وكان الذين يُعَدُّون بالمعارف فيها ستة آلاف تليد فيهم ابن
أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصنائع فيها . غير أن الفقير يُنْفَقُ
عليه من الرِّيع المخصَّص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه والمعلمون
كانوا يُتَّقَدون أجورا وافرة اه

وجميع المدارس الطيبة في البلاد الاسلامية أخذت نظام امتحانها
عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشدِّ النظمات وأدقها . ولم

يكن لطيب أن يمارس صناعته الاعلى شريطة أن تكون بعد شهادة
بأنه فاز في الامتحان على شدته . وأول مدرسة طيبة أنشئت في قارة
أوربا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في سالييرت من بلاد
إيطاليا . وأول مرصد فلكى أقيم في أوربا هو الذى أقامه العرب
في أشبيلية من بلاد الاندلس

وقد تعددت المراصد الفلكية في البلاد الاسلامية شرقا وغربا ومن
أشهرها مرصد بغداد المنشأ على قنطرةها وقد رصدت به عدة أرواصد
وصححت جلة أزياج . ومرصد المراغة الذى أنشأه نصير الدين الطوسى
بأمر هولاء كوخان ولما أتم كوپلاى خان أخوهولاء كوفتح الصين نقل
مؤلفات علماء بغداد اليها . ومرصد سمرقند الذى أنشأه تيمورلنك .
ومرصد دمشق الذى أنشأه الوغ بك مرزا محمد حفيد تيمورلنك وكان من أعلم
علماء الفلك وله زيج مشهور معتبر الى هذا العصر . وكان بعصر مرصد
جبل المقطم أنشأه ابن يونس الفلكى الشهير صاحب الزيج الحاكى

وأما دور الكتب فلم تكن عناية الدول الاسلامية بها أقل من
عنايتهم بالمدارس فقد كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة
تحتوى على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لاغير .
ومكتبة الخلفاء في الاندلس بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان فهرسها

أربعة وأربعين مجلدا . وقد حققوا أنه كان ببلاد الاندلس وحدها سبعون مكتبة عمومية وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للطالعة والنسخ والترجمة . وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه وأما ضخامة تأليفهم فما لا يحصره العدّ وحسبك في المشرق كتاب قيد الأوابد للإمام البخزنجي المتوفى سنة ٥٥٩ من قرى خراسان في ٤٠٠ مجلد وفي الاندلس لأحمد ابن أبان كتاب العالم نحو ١٠٠٠ سفر بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة والأعجب الأغرّب كتاب فلك الأدب الذي تعاقب على تأليفه من جهابذة الاندلسيين في ٦ سنة ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ هـ

ولقد أحرق أهل اسبانيا من الكتب الاسلامية بعد جلاء المسلمين عنها ما يدهش لبيان عدده السامع ويحار المتأمل ويتوقف قلم الكاتب جاء في المجلد الثالث من المقتطف وجه ٧ مانصه

ليقل لنا أهل اسبانيا أين الثمانون ألف كتاب التي أمر كردينا لهم شيمتر بحرقها في ساحات غرناطة بعيد استظهارهم عليها فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون حتى أقنوا على ما قال مؤرخهم ربلس ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها نخطها أقلام العرب . وليتهم يخبرون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم

يذروا . وما يقولون عن السفن الثلاث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الفخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها وألقوا كتبها في قصر الاسكوريال سنة ١٦٧١ ميلاديه (الموافقة سنة ١٠٨٢ هجرية) حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة أرباعها ولم يستخلصوا منها الا الربع الاخير . حينئذ استفاقوا من غفلتهم وعلموا كُبر جهالتهم ففوضوا الى ميخائيل القصيرى الطربلسى المارونى ترتيبها وكتابة أسمائها فكتب لهم أسماء ١٨٥١ كتابا منها فعلى ما في هذه الكتب وما بقى في أفريقيا والمشرق قصر أهل هذه الايام معارف العرب وحتى هذه لم يستوعبوا جميع ما فيها اه

وأما مكاتب بغداد فانه لما فاجأها التتار بالهجوم بعد قتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين جعلوا دأبهم السلب والنهب وأخذوا كتب العلم التي كانت في خزائنها وألقوها بدجلة فعبّرت عليها جنودهم . فأضف هذه النفائس الى ما أحرقه أهل اسبانيا وتصوّر مقدسار ذلك كله ثم أنسب ما بقى من الكتب الاسلامية الى ما أُلّف منها وتفكر بعد ذلك في ان هذه الملايين من الكتب انما خُطت بالقلم قبيل أن تُعرف المطبعة واحكم بعد ذلك وأنت منصف في حكك بأن العرب لم تسبقهم أمة اعتنت بالعلم اعتناءهم واهتمت به اهتمامهم

وتقيما للفائدة نذكر ماورد في مجلة المقتطف في سنتها الثالثة في صفحة ٩١ و ٩٢ تحت عنوان فضل العرب وهو خاتمة مقال نشر في تلك السنة في بيان ماثر العرب وعلموهم وبعض علمائهم وقد اقتطفنا من هذا المقال الجامع شذرات ضمناها مقالنا السابع وهاهو ما ذكر تحت هذا العنوان في القرون الوسطى قصد أهل أوروبا مدارس الاندلسيين وكانت على غاية الاتقان وقرأوا العلم فيها ثم تزودوه منها الى بلادهم . ففي سنة ٨٧٣ للمسيح أمر هرتوت رئيس دير ماري غالن بجماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها . وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامر يدعيه وأشهر من تعلم العلم من العرب البابا سلغستر الثاني وأصله رجل فرنسي يسمى جربرت طاف على قسم كبير من أوروبا طالبا المعارف حتى دبت قدمه في الاندلس فرجع في مدارس اشبيلية وقرطبة وصرف الى العلوم رغبته فلما ساعها هنيئا عاد الى دياره وما زال يسمو على اقرانه حتى تنصب بابا فشاد للعلم مدرستين الاولى في ايطاليا والاخرى في ريمز وأدخل الى أوروبا معارف العرب والأرقام الهندية التي نقلها عنهم . ثم نارت الحية في أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانجلترا فطلبوا الاندلس من كل فج عميق وتناولوا المعارف من أهلها . قال مونت كلا في تاريخ العلوم الرياضية ولم يتم

من الأفرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة .
فن جملة من نقل عنهم المعارف من أهل ايطاليا دوكريمونا قرأ علم
الهيئة والطب والفلسفة بظليطلة وترجم عنهم المجسطى وكتب الرازى
والشيخ الرئيس الى اللاتينية وليوندار البيزى نقل عنهم الحساب والجبر
وأرنولد الفيلاوثى نقل عنهم الهيئة والطبيعات والطب . ومن نقل
عنهم من الانجليز راهب اسمه بلارد وآخر اسمه مورلى وآخر اسمه سكوت
وكذلك روجر باكون الشهير فان ما حصله من المعارف فى الكيمياء
والفلسفة والرياضيات انما استخلصه من كتبهم وقد اقتبس من أقوال
الحسن فى البصريات ومثله فيتليو الذى اشتهر بالبصريات فانه أخذ
كثيرا عن الحسن . ولما عرف ملوك الأفرنج قيمة معارف العرب
أعروا بترجمة كتبهم ومنهم نقل شارلمان فردريك الثانى الجرمانى
والفونس الثانى القسطلى . وانخلاصة أن الأفرنج نقلوا عن العرب
مما نقله العرب عن غيرهم أو استنبطوه بأنفسهم الفلسفة والهيئة
والطبيعات والرياضيات والبصريات والكيمياء والطب والصيد له
والجغرافية والزراعة والفراسة وأخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر
والخزف وتركيب الاودية ونسج كثير من المنسوجات وأدخلوا منهم الى
بلادهم دود القرز وكثيرا من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر

والزعفران والقطن والسباخ والرمان والتين ونقلوا عنهم دبغ الاديم
وتجفيفه وقد استرد الانجليز هذه الصناعة بعد فقدها من الاندلس بجلاء
العرب عنها ولا يزالون يسمون الجلود المدبوغة بها (موركو وكردوفان)
نسبة الى مراکش وقرطبة

ولا تزال الالفاظ العربية مستعملة في أكثر مباحث الافرنج الطبيعى
كالسمت والنظير والسموت والمقنطرات وأسماء النجوم والكحول والقلبي
والجبر والقطن والشراب والكيمياء وغيرها . ولولا لغة العرب لبقيت لغة
أهل اسبانيا قاصرة كما كانت فأسماء أوزانهم وأقيستهم أكثرها عربي
محرف كالقنطار والربع والشبر وكذلك أسماء قطع الماء ونحوها
كالبحيرة والبركة والجب والكهف وغيرها كثير
فالمولدون كانوا في زمانهم حلقة من سلسلة العلوم اتصلت بها علوم
الاولين بالتأخرين ولولاهم لفقد أ ك

قول جريدة مدرسة ادنبرج الكلية في هذا

(انا لمدينون للعرب كثيرا ولو قال غيرنا خلاف ذلك فانهم الحلقة
التي وصلت مدينة أوروبا قديما بمدنيتها حديثا وبنجاحهم وسموهمتهم
تحرك أهل أوروبا الى احراز المعارف واستفاقوا من نومهم العميق
في الاعصار المظلمة . ونحن لهم مدينون أيضا بترقية العلوم الطبيعية

والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوروبا كثيرا علما ومدنية) اهـ

أما تاريخ العلوم والآداب العربية من ابتداء الدولة العباسية الى الآن فإنه ينقسم الى أربع مدد كبيرة

المدة الاولى تبتدى بخلافة أبي جعفر المنصور وتنتهى بمنتصف القرن الرابع تقريبا فهى نحو ٢٠٠ سنة وهى المدة التى صعدت فيها العلوم والآداب الى ذروة مجدها وأوج عزها وفاضت فيها ينابيع المعارف على جميع البلاد الاسلامية فأينعت جناتها وودت للقاطنين أفنانها .
وفىها أشرفت شمس الأئمة المجتهدين وأجلاء المحذنين وبار علماء الدين وأئمة العربية وفحول الشعراء وأعظم الكتاب ورجال الآدب وغيرهم من أساطين العلماء

المدة الثانية تتلاقى مع المدة الاولى فى نهايتها وتنتهى بسقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ وفى هذه المدة ضعف أمر الخلافة العباسية باستيلاء الديلم والسلاجيقيين على السلطة ولم يكن هؤلاء الاعاجم يعرفون من قدر العلم كما كان يعرف الخلفاء من العرب فقترت الهمم بعض القُتور واقتصر كثير من أهل العلم على النظر فى كتب من قبلهم ووشوها بالحواشى . غير أنه نبغ فى هذه المدة عدد كبير فى كل علم وفن لاسيما

العلوم الرياضية والفلسفية وكان ذلك من أثر تلك الجذوة التي اشتعلت في المدة الأولى ولم يُحمدها ضعف الخلفاء بل بقيت بعدهم زمنا يقبَس منها المقبَس حتى أطفأها التتار في بغداد والبلاد التي استولوا عليها من آسية ثم دخلوا في الاسلام فتألق بعض وميضها كما سبق

المدة الثالثة تبتدى بسقوط الدولة العباسية وتنتهى باستيلاء محمد على باشا على مصر سنة ١٢٢٠ وفي أول هذه المدة أعدمت المعارف العربية في بلاد فارس وما وراء النهر وبقيت زاهية في مصر قليلا بفضل الجامع الازهر كل هذه المدة وكذلك في بلاد المغرب في دولة السعديين والاشراف بعدهم وفي أواخر هذه المدة كانت العلوم العربية في آخر رمق من حياتها . ولكن كان يلوح في اثناء ذلك الزمن بصيص من نور العلم والعرفان ثم يختفي فقد ظهر من أكابر العلماء أبو الفداء وابن خلدون والمقرئى وابن حجر والسيوطى وابن منظور صاحب لسان العرب والمجد صاحب القاموس وابن الوردى الفقيه

المدة الرابعة تبتدى باستيلاء محمد على باشا على مصر وفي هذه المدة أخذت المعارف والآداب تدب فيها الحياة وتنمو في مصر والشام بفضل ما طبع وألف من الكتب المختلفة النافعة

امرؤ القيس

(المتوفى سنة ٥٦٦ م)

هو امرؤ القيس بن حجر الكندي وأمه فاطمة وقيل تملك بنت ربيعة
ابن الحارث أخت كليب ومهلل وقد ذكرها في قوله

الأهل أتاها والحوادثُ جمة * بأن امرأ القيس بن تملك بيقرأ

أى أقام بالخضر وترك أهله بالبادية ومعنى (امرؤ القيس) رجل
الشدة وقيل القيس اسم صنم وقد ولد ببلاد بني أسد ولما شب تعلق

بالشعر ونبغ فيه وهو أول من استوقف على الطلول وشبهه النساء بالطباء
والمها وأجاد الاستعارة والتشبيه وكان أبوه ملك بني أسد فعرضتهم عندهما

شديدا فماتوا عليه وقتلوه وقد كان طرد ابنه امرأ القيس لتشبيهه بالنساء
في شعره وتنقله في أحياء العرب يستبجع صعاليكهم وذو بانهم وبينما هو

يشرب الخمر بأرض اليمن بلغه قتل أبيه فقال ضيعني صغيرا وجاني ثقل
الثار كبيرا لاصحو اليوم ولاسكر غدا اليوم نجر وغدا امرؤ ثم انه استنصر

بعض أقبال العرب ورؤساء القبائل وما زال يتبع بني أسد حتى انفر بهم
وحصلت له بعد ذلك وقائع كثيرة ثم مات بجبل يقال له عسيب ودفن

بأنقرة سنة ٥٦٦ م وأشهر شعره المعلقة الطائرة البيت التي مطلعها

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللرا بين السخول لخمول